

صدر والحكمة المتعالية

الأبحاث و المقالات المنشورة لا تعبر عن رأي «الآفاق» بالضرورة، بل تعبر عن رأي أصحابها

■ تمهيد:

يمكن القول إنّ الفكر الفلسفي السائد هذه الآونة، ولا سيما في الأوساط العلمية الإسلامية وخصوصاً في الحوزات العلمية، هو فكر وفلسفة الحكمة المتعالية، التي أرسى دعائمتها وأسس قواعدها في القرن الحادي عشر الهجري صدر الدين الشيرازي، الملقّب بصدر المتألهين أو بالمالا صدرا. ولا يمكن دراسة هذه الفلسفة من دون إطلالة على الحياة العلمية لهذا الرجل العظيم.

■ من هو صدر؟

ولد في شيراز دون أن تحدّد بالدقة سنة ولادته، من والد صالح اسمه إبراهيم بن يحيى القوامي، وقيل إنّه كان أحد وزراء دولة فارس. وكان هو الولد الوحيد حيث حظي باهتمام كبير عند والده، الذي وجهه لطلب العلم، فبدأ دراسته في شيراز عاصمة الدولة آنذاك. وانتقل بعد وفاة والده إلى أصفهان، وأنفق كلّ ماله الذي ورثه في تحصيل العلم، فتتلمذ على يد الشيخ بهاء الدين العاملي (٩٥٣-١٠٣١هـ)، الذي وجهه بعد فترة إلى فيلسوف عصره السيّد محمد باقر الداماد (المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ). ويمكن تقسيم حياة فيلسوفنا العلمية إلى ثلاث مراحل:

■ المرحلة الأولى، التلمذة:

حيث كان يتتبع آراء المتكلمين والحكماء ومناقشاتهم، ولم يكن في هذه المرحلة قد نضج من الناحية الفلسفيّة، ولم يفتح له المسلك العرفانيّ. وفي هذه الفترة " استوعب في هذا المجال من حكماء اليونان خصوصاً، أفلاطون وأرسطو، وما أبانته دراسات كبار حكماء الإسلام كالفارابي وابن سينا وشيخ الإشراق وغيرهم، وما ابتكره هؤلاء، كما هضم ما وصل إليه كبار العرفاء عن طريق الذوق والوجدان".

لكن مع ذلك كله يجبر هو عن هذه المرحلة بقوله: " وإنّي كنت سالفاً كثير الاشتغال بالبحث والتكرار، وشديد المراجعة إلى مطالعة كتب الحكماء والنظار، حتى ظننت أنّي على شيء، فلمّا انفتحت بصيرتي ونظرْتُ إلى حالي رأيتُ نفسي فارغة من العلوم الحقيقيّة وحقائق العيان، ممّا لا يدرك إلا بالذوق والوجدان".

ثم نجده في مقدّمة كتابه الأسفار يقول: " ثمّ إنّي قد صرفت قوتي في سالف الزمان، منذ أوّل الحداثة والربعان في الفلسفة الإلهيّة، واقتفيت آثار الحكماء السابقين، والفصلاء اللاحقين، وحصلت من ما وجدته من كتب اليونانيين، والرؤساء والمعلّمين، تحصيلاً يختار الباب من كل باب، من غير أن يظفر من الحكمة بطائلي، أو يرجع البحث إلى ناثلي". وكأنّه يظهر الندم على هذا الجهد الذي بذله. ولكن سيبدو أنّه استفاد كثيراً في هذه المرحلة لتكوين فلسفته، وتدعيمها.

■ المرحلة الثانية، العزلة:

فقد انقطع عن الناس إلى كهك، وهي إحدى قرى قم المقدّسة، خمسة عشر عاماً على ما قيل، تفرّغ فيها للعبادة وتصفية الفكر وتهذيب الخيال. فهو يقول بعد أن يذكر في مقدّمة كتابه الأسفار أحوال أهل ذلك الزمان، ومعاداتهم له: " فأمسكت عنائي عن الاشتغال بالناس ومخالطتهم، وأبيست مرافقتهم، وموانستهم،

وسهلت عليّ معاداة الدوران، ومعاندة أبناء الزمان، وخلصت عن إنكارهم وإقرارهم، وتساوى عندي إعزازهم وإضرارهم، فتوجّهت توجّهاً عزيزاً نحو مسبّب الأسباب، وتضرّعت تضرّعاً جبليّاً إلى مسهّل الأمور الصعاب، فلمّا بقيت على هذا الحال من الإستتار والإنزواء زماناً مديداً وأمداً بعيداً، اشتعلت نفسي لطول الجاهدات اشتعالاً نورياً، والتهب قلبي لكثرة الرياضات التهاباً قوياً، ففاضت عليها أنوار الملكوت، وحلت بها خبايا الجبروت، ولحقتها الأضواء الأحدثيّة...". وبذلك يكون قد انتقل إلى:

■ المرحلة الثالثة، التأليف:

فيقول "فألهمني الله الإفاضة ممّا شربنا جرعةً للعطاش الطالبين، والإلاحة ممّا وجدنا لغمه للقلوب السالكين، ليحيا من شرب منه جرعة، ويتنور قلب من وجد منه لعمه، فبلغ الكتاب أجله، وأراد الله تقديمه وقد كان أجله، فأظهره في الوقت الذي قدره، وأبرزه على من له يسره، فرائتُ إخراجَه من القوّة إلى الفعل والتكميل، وإبرازه من الخفاء إلى الوجود والتحصيل، فأعلّمت فيه فكري، وجمعت على ضمّ شوارده أُمري، وسألت الله تعالى أن يشدّ أزرِي، ويحطّ بكرمه وزري، ويشرح لإتمامه صَدري، فنهضت عزيمةي بعد ما كانت قاعدةً، وهبّت همّتي غبّ ما كانت راكدةً، واهتزّ الخامد من نشاطي...٦، فصنّف كتاباً إلهياً- الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة- وبدأ في مرحلته هذه بالتأليف والكتابة.

أهم مؤلفات صدر المتألهين بعد كتاب الأسفار:

- تفسير القرآن الكريم.
- شرح على أصول الكافي.
- مفاتيح الغيب.
- المبدأ والمعاد.
- رسالة في حدوث العالم.
- كتاب المشاعر.
- الشواهد الربوبية.
- العرشية.
- رسالة تصوّر والتصديق.

وقد طبع أكثر مؤلفاته التي يبلغ عددها ٣٢ كتاباً ورسالةً تقريباً.

ميّزات هذه المدرسة:

إنّ المنهج المتّبع في مدرسة الحكمة المتعالية، منهجٌ مختلف عن كلّ المدارس السابقة عليه، فهو ليس منهجاً مشائياً بحتاً، ولا إشراقياً بحتاً، ولا صوفياً، ولا كلامياً، "وليست فلسفةً تجميعيّة، بل لها بناؤها الفلسفيّ المشخّص". فهي بحقّ مزيجٌ من كلّ هذه المناهج والمدارس. وبملاحظة حياة صدر المتألهين بمراحلها الثلاث، يمكن استنتاج ركائز الفلسفة التي شيّدها، والأُسُس التي اعتمد عليها. فهو فيلسوف إسلامي قرأ كلّ ما تقدّم عليه من أفكار وفلسفات، وطاقت نفسه لحياة العزلة والتصوّف، لكنّه خرج من عزلته منتصباً، يحمل فلسفةً جديدةً، لم يكن ليوفّق إليها من قبله، فكانت فلسفته مزيجاً من البرهان والوجدان والقرآن، أو قل مزيجاً من العقل والكشف والشرع.

■ ١- الجمع بين البرهان والوجدان:

أولاً: إنّ الحكمة المتعالية تتخذ من العقل أساساً لها، ومن الشهود والمكاشفة أساساً آخر، لكن لا بنحو الفلسفة المشائيّة تنكر على الشهود كلّ التكبر، ولا كالصوفيّة يعترضون

ويسفّهون العقل أيّ تسفيه، بل هي تحارب من يعتمد على الشهود والكشف فقط، كما وتذمّ من يعتمد على العقل والبرهان فقط.

فنجد صدرا يشنّع على من ينكر العلم الدّني، بينما هو يعتبره أقوى وأشدّ فيقول: " إنّ كثيراً من المنتسبين إلى العلم ينكرون العلم الغيبي الدّني، الذي يعتمد عليه السّلاك والعرفاء، وهو أقوى وأحكم من سائر العلوم، قائلين ما معنى العلم إلا الذي يحصل من تعلّم أو فكريّة ورويّة".

ويذمّ المعتمدين على البحث والعقل فقط فيقول: " لا على مجرّد الأنظار البحثيّة، التي سيلعب بالمعولّين عليها والمعتمدين بها الشكوك، يلعن اللاحق منهم فيها السابق، ولم يتصالحوا عليها ويتوافقوا فيها، بل كلّما دخلت أمة لعنت أختها".

فأولى "أنّ يرجع إلى طريقتنا في المعارف والعلوم الحاصلة لنا بالمزاوجة بين طريقة المتألهين من الحكماء، والمليّين من العرفاء". ويقول في موضع آخر في وصف كتابه الأسفار بأنّه: "قد اندمجت فيه العلوم التالهيّة في الحكمة البحثيّة وتدرعت فيه الحقائق الكشفية بالبيانات التليميّة".

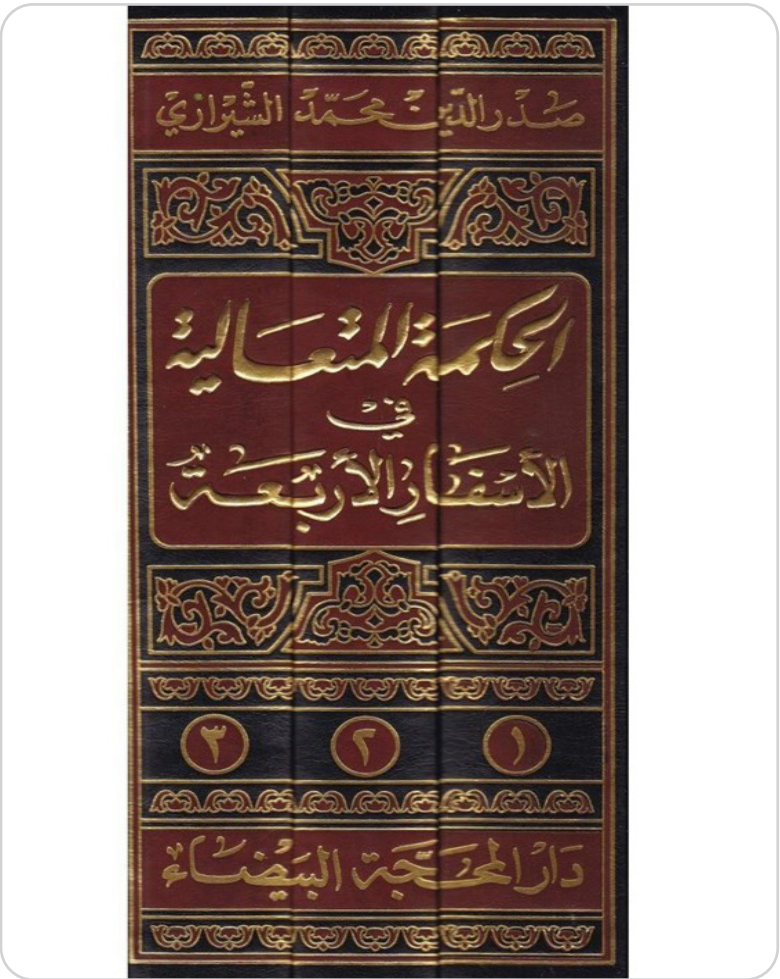
ويفتخر بالطريقة التي وصل إليها بأنّها "مّا لست أظنّ أن قد وصل إليه أحد ممّن أعرفه من شيعة المشائين ومتأخّريهم، دون أئمّتهم ومتقدّمهم، كأرسطو ومن سبقه. ولا أزعم، إن كان يقدر على إثباته بقوّة البحث والبرهان شخصٌ من المعروفين بالمكاشفة والعرفان، من مشايخ الصوفيّة من سابقهم ولأحقّهم".

وهذا يعني أنّه لم يبلغ المشاؤون ما بلغه هو من المكاشفة والوجدان، ولا الإشراقيّون والعرفاء بلغوا ما بلغه هو بالبحث والبرهان، نعم يمكن القول: "إنّ فلسفة صدر المتألهين تشبه المدرسة الإشراقيّة من ناحية الأسلوب، أي إنّها تقتصد كلّاً من الاستدلال والمكاشفة، إلّا أنّها تختلف عنها في الأسّس والاستنتاجات".

ثانياً: يقدّم البحث الفلسفيّ على الشهود الوجداني، شفقةً بالمتعلّمين، وتسهيلاً عليهم، لأنّ الطالب قد لا يقتنع بالمشاهدة ولا يصدّق بها ابتداءً، لكنّه إذا وجد الدليل البحثيّ العقليّ واقتنع به، ثمّ سمع بالمشاهدة والكشف أمكنه التصديق أكثر: "ونحن أيضاً سالكو هذا المنهج في أكثر مقاصدنا الخاصّة، حيث سلكتنا أوّلاً مسلك القوم في أوائل الأبحاث وأواسطها، ثم نفترق عنهم في الغايات، لئلا تنبو الطبايع عمّا نحن بصدده في أوّل الأمر، بل يحصل لهم الإستيناس به، ويقع في أسماعهم كلامنا موقع القبول إشفاقاً بهم".

■ ٢- المطابقة بين الشرع والعقل:

وهذه الميزة التي تفصل بين هذه المدرسة وسائر المدارس من حيث النتائج، فلم يقع فيما وقع به المشاؤون من تطبيق الشريعة وتأويلها بما يلائم العقل، ولم يفشل من حيث النتيجة بعدم الحصول على البراهين العقلية بما يلائم الشريعة كما حصل للإشراقيّين، بل وجد في كلّ مسائله الفلسفيّة الحكميّة التي طرحها مطابقةً بين العقل والشرع: "وحاشا الشريعة الحقّة الإلهيّة البيضاء أن تكون أحكامها مصادمةً للمعارف اليقينيّة الضروريّة، وتبّاً



لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقةً للكتاب والسنة". وعلى هذا لا يزال يستشهد على كلّ مسألة فلسفيّة عويصةً بالآيات القرآنيّة والآثار الإسلاميّة. وهو بارعٌ في تطبيق ما يستشهد به على فلسفته. ولم يكن استشهاده بها لرفع شبهة المتهمين له بالخروج عن الدين، بل هو من الذين يدعون أنّه لا أحد يفهم أسرار القرآن الكريم، والسنة الشريفة كما يفهما هو. وهو يسعى في كلّ ما ألّفه إلى أن يبيّن هذا المنهج الفريد، فيهدف من كتبه الفلسفيّة إلى بيان تأييد العقل للدين، ومن كتبه الدينيّة بيان تأييد الدين للعقل، فكانت كتبه كلّها دينيّة فلسفيّة.

■ ٣- محوريّة القرآن:

وقد يتبادر للأذهان من هذا الأسلوب الفريد الذي يتّبعه المألا صدرا، أنّ البرهان والعرفان والقرآن في عرض واحد، وأنّها طرقٌ ثلاثٌ توصل إلى الحقيقة وتكشف عنها، وأنّه لا تقدّم لبعضها على الآخر، إلّا بالأسلوب التأليفيّ والكتابيّ لإقناع الطلاب، وشفقةً بهم كما تقدّم، ولكنّ الصحيح أنّ المحوريّة الأساس للقرآن في مدرسته: " إنّ الحكمة المتعالية وجدت كمالها في الجمع بين الأدلّة، البرهان والعرفان والقرآن، وأنّه لا يوجد أي اختلافٍ بينها، وإنّما هي توافقٌ وانسجامٌ تامٌّ، نعم في مقام المقايسة الداخليّة بين هذه الطرق الثلاث، فإنّ المحوريّة والأصالة هي للقرآن، والأخران يدوران حوله، لا ينفكّان عنه".

■ حدود العقل:

ومن الضروريّ جداً وضوح مكانة العقل في هذه المدرسة. فقد يتصوّر أنّ الحقائق، التي كشفت اللثام عنها الحكمة المتعالية، يتوصل إليها بالطرق الثلاث المتقدّمة، وأنّ ما يصل إليه الكشف والشهود، وما يمكن للعقل والبرهان أن يصل إليه، ويستدلّ عليه. وقد يتصوّر أنّه يوجد تنافٍ بين القرآن والوجدان من جهة، والبرهان من جهة ثانية، حيث إنّ هذه الطرق في عرض بعضها، والتنافي واقعٌ فيما بينها.

لكن الحقّ غير هذا، فإنّ هذه الطرق ليست في عرض بعضها البعض حتى يقع التنافي فيما بينها، وإنّما هي في طول بعضها البعض، ويأتي دور المكاشفة والشهود حينما ينتهي دور العقل والبرهان.

يقول صدر المتألهين: "ثمّ إنّ بعض أسرار الدين وأطوار الشرع المبين بلغ إلى حدٍّ ما هو خارجٌ عن طور العقل

- مركز إدارة الحوزات العلمية
- المشرف: رضا رستمى
- رئيس التحرير: على رضا مكتبدار بمساعدة الهيئة التحريرية
- هاتف: ٠٥٣٨ ٣٣٩٠٠٥٣٨ ٢٥ ٩٨ + • فاكس: ٠٥٣٣ ٣٣٩٠١٥٣٣ ٢٥ ٩٨ +
- ص. ب: ٣٧٨٥/٤٣٨١
- العنوان: قم، شارع جمهوري إسلامي، زقاق ٢، رقم ١٥
- الموقع: www.ofoghhawzah.ir
- البريد الإلكتروني: info@ofoghhawzah.ir
- تصميم:مرتضى حيدري أهنگري • مسئول الطبع: مصطفى اويسى
- طباعة: صميم ٣٣٧٢٣٧٥ ٩٨ ٩١ +

شعر وقصيدة



- الشيخ صالح الكوّاز

حزن البتول

الواثنين لظلم آل محمّد

ومحمّد ملقى بلا تكفين

والقائلين لفاطم آذيتنا

في طول نوح دائم وحنين

والقاطعين إراكةً كيما تقيل

بظل أوراق لها وغصون

ومجمّعي حطبٍ على البيت الذي

لم يجتمع لولاه شمل الدين

والداخلين على البتولة بيتها

والمسقطين لها أعزّ جنين

والقائدين إمامهم بنجاده

والطهر تدعو خلفهم برنين

خلّوا ابن عمّي أو لاكشف للدها

رأسي وأشكو للاله شجوني

ما كان ناقة وفصيلها

بالفضل عندالله إلا دوني

ورنت إلى القبر الشريف بمقلة

عبرى وقلب مكمد محزون

قالت وأظفار المصاب بقلبها

ابتاه قلّ على العداة معيني

أبتاه هذا السامري وصحبه

ثبعا ومال الناس عن هارون

أي الرزايا اتقي بتجلّد

هو في النوائب ما حييت قريني

فقدى أبي أم غصب بعلي حقّه

أم كسر ضلعي أم سقوط جنيني

أم أخذهم إرثي وفاضل نحتي

أم جهلهم قدري وقد عرفوني

قهروا يتيميم الحسين وصنوه

وسألّتهم حقّي وقد نهروني

باعوا بضائع مكرمهم وبزعمهم

ربحوا وما بالقوم غير غيبين

نصيحة نفسية



الصمت حكمة والصمت ضعفا

هناك فرق بين أن تصمت حكمة وبين أن تصمت ضعفاً، فالأول له فوائد، والثاني له عواقب، عندما تصمت حكمة فقد كسبت أكثر مما خسرت، وعندما تصمت ضعفاً فقد خسرت أكثر مما كسبت.

عندما تصمت حكمة فإنك تنسجم مع ما فعلت فتتعم بالهدوء، وعندما تصمت ضعفاً فإن جسدك يتالم، ومشاعرك تتأجج، ونومك يضطرب.